العصور الوسطى
الى عهد شارلمان

يتجنب المؤرخون وضع حد فاصل بين العالم القديم والعصور الوسطى، ويقترحون فترة انتقال بينهما تدوم خمسة قرون، وعلى ذلك لانستطيع أن نحدد متى زالت المكتبة القديمة من الوجود ومتى بدأت مكتبات العصور الوسطى ويجب على العلماء أن يقنعوا أنفسهم بالوقوف فقط على العوامل الاساسية التي حددت خصائص هذا النمط الجديد من المكتبات وتتبعه في مراحل تطوره(١).

كانت لفائف البردي من خصائص المكتبة القديمة، وحلت الرقوق محلها في مكتبة العصور الوسطى، وقد رأينا في الفصل السابق كيف كان البردي يستخدم كمادة للكتابة في العصور القديمة، والواقع أن الرق آنذاك كان أيضا يستخدم لأغراض أقل أهمية، ولكن الشواهد الفنية والأدبية تدل على أن الرق لم يصبح مادة الكتابة الشائعة إلا في القرن الثالث الميلادي، ولم يكد يأتي القرن الخامس الميلادي حتى كان الرق قد حل محل البردى تماما. وعلى ذلك فقد تم في هذه الفترة نقل أكثر الآثار الفكرية من مادة البردى إلى مادة الرق. ولهذا النقل أهميته فيما يعني به فقه اللغة الحديث من نقد النصوص، وحين استعمل الرق بدلاً من البردي في تلك القرون ترتب على ذلك تغير الشكل المادي للكتاب، فبعد أن كان لفائف من البردى أصبح مخطوطات من رق ذات غلاف يابس على هيئة الكتب، ومن المتوقع أيضا أن انتشار استعمال كتب الرق أدى إلى تغيير في البناء الداخلي للمكتبة على أن هذه التغييرات لم تكن جذرية في طبيعتها كما تدل على ذلك قطعة موزايك من القرن الخامس وصورة مصغرة من القرن السادس، ففيهما نرى أن كتب الرقوق تحفظ في خزائن على نحو ما كانت تحفظ لفائف البردي سابقا. وإذا كان حفظ الكتب في شكلها الجديد قد احتاج إلى مكان أكبر فقد عوض ذلك أن مخطوطة الرق الواحدة تسع من النصوص ما تحويه عدة لفائف من البردي.

---

(١) عولجت الفترة التي نغطيها الفصول الأربعة التالية من هذا الكتاب بتفصيل أكثر في كتاب j.W.. Thompson = The medieval library . Chicago, 1939. وهو أحدث وأوسع كتاب بالانجليزية في هذا الموضوع . ولكن ينبغي قراءته بنوع من الحذر . كما أن = C.P.Farrar and A.P Evans. Bibliograhy of English tramslations from medie- val sources, New york,1946. يعطي قائمة مفيدة للإنتاج الفكري لهذه الفترة. أما كتاب= Falconer Madan Books in manuscript, 2nd ed. London, 1927 فليس إلا كتابا قديما محدودا في مجاله.

وكان لمزايا الرق الحقيقية من قوة احتمال أكبر، وسهولة التناول وإمكان الكتابة على الوجهين، وبعض الخصائص الأخرى، أثر حاسم في تغلب كتب الرق على لفائف البردي، وينبغي لنا أيضاً أن نلاحظ في نفس الوقت العوامل غير المادية التي تدخلت في الأمر، ويبدو كذلك أن الشكل الجديد للكتاب كانت تدعو له المسيحية وهي القوة الدينية الصاعدة، بينما تمسكت الوثنية وهي في موقف دفاع بالشكل القديم المألوف، ولعل التنافس بين المكتبتين المسيحية والوثنية وقع في نفس هذا الوقت.

وكان مصير المكتبة الوثنية مرتبطا ارتباطاً وثيقاً بمصير الثقافة القديمة، فحين تدهورت تلك الثقافة وراحت مدارس أساتذة البيان تغلق واحدة إثر أخرى، وأخذ عدد غير المثقفين يتزايد تزايداً سريعاً، أفقرت تلك الأماكن التي اعتاد المهتمون بالثقافة والعلوم الوثنية أن يجتمعوا فيها، ونجد اميانوس مرسيلينوسAmmianus Marcellinus في القرن الرابع ينعي «المكتبات التي أغلقت إلى الأبد وأصبحت كالمقابرBybliothecae selulchrorum ritu in perpetum elaustrae (١).

وجاء الخراب على الأثر، على أننا لا نكاد نجد المصادر الوثيقة عن تشتت المخطوطات وهدم المباني، ويبدو أن مكتبة الإسكندرية وقعت فريسة للتعصب المسيحي في نهاية القرن الرابع، ويقال إن جريجوري الأكبرGregory the Great الذي طالما خطب «الخطب الجنائزية» المشهورة أسفاً على روما التي قهرها اللبومباردیون هو نفسه الذي أمر بإحراق مجموعات الكتب الإمبراطورية، وإذا كان ذلك من روايات العصور الوسطى المتأخرة فلا شك أنه ينطوي على بذرة الحقيقة الكامنة في كل أسطورة.

لقد حاكت المكتبات المسيحية المكتبات الوثنية في تكوينها، ولما كان كثير من المكتبات الوثنية القديمة يقع في المعابد، فقد كان من الطبيعي أن تلحق المكتبات المسيحية بأماكن العبادة حتى تكون في حماية الكنيسة، وكانت كتب التوراة والإنجيل أساس مجموعة المكتبة في كل مكان ثم أضيف إليها مؤلفات الطقوس الكنسية وشروح الكتاب المقدس، وحين اتسع نشاط المدافعين عن المسيحية زخرت المكتبات بأعمال رجال اللاهوت ومعارضيهم من الوثنيين، وأخيرا كانت الحاجة إلى الدنيوية.

ومكتبات الكنائس التي وصلت إلينا أنباؤها كثيرة وخاصة في أفريقيا حتى قبل حكم ديوقليد Diocletian، وقد وقع كثير منها فريسة اضطهاده، ولكن منذ اعترف الإمبراطور قسطنطين بالكنيسة كمنظمة ترعاها الدولة، أصبحت الواجبات النظامية والتنظيمية والعقيدية تحتم على كل

(١) Ammianus Marcellinus, xiv, 6, 18.

قسيس أن يحتفظ بمكتبة متوسطة الحجم على الأقل، وفي بداية القرن الخامس بنى القس بورلينوس في نولاPaurlinus of Nola قاعة مسيحية للقراءة في كنيسة الأسقفية ونقش عليها هذه العبارة:«هنا يستطيع من اتجهت أفكاره إلى قوانين الله أن يجلس ويتأمل في الكتب المقدسة»(١).

وكان ترتوليانTurtullian (حوالي ٢٢٠م) واحداً من آباء الكنيسة الذين نستطيع أن نصور مكتباتهم اليوم، ولدينا أيضا تفصيلات عن مكتبة قيصرية Caesarea المشهورة بفلسطين، وكان أقدم جزء من محتوياتها يتألف من مخطوطات اوريجنOrigen التي قام تلميذه بامفيلوسPamphilus(توفي ٣٠٩م) بنسخها وزيادة عددها، وبعد ما يقرب من قرن انتفع جيروميjerome بهذه المخطوطات وذكر أن رجلين من الأساقفة قاما بنقل مخطوطات بامفيلوس من لفائف البردى إلى الرقوق، وكان جيروم نفسه شغوفا بجمع الكتب، كما ترك معاصره العظيم أوجسطينAugustine أيضا مجموعة ثمينة من المخطوطات للكنيسة في هيبوHippo . وكانت المكتبات الخاصة لهؤلاء العلماء تنقسم بالطبيعة إلى ثلاثة أقسام، قسمان دنيويان يختص كل منهما بلغة والثالث يختص بالدين المسيحي، ولم يعد آباء الكنيسة يستخدمون الآداب الدنيوية بالطريقة الكلاسيكية، فقد كان إيمانهم يحول بينهم وبين التغلب على النفور العميق من الأداب الوثني، وإنما كانت الآداب الدنيوية عندهم وسيلة وأساسا يبنون عليه المعرفة المسيحية.

وقد حل مع القرنين الخامس والسادس الانهيار السياسي للإمبراطورية الرومانية وإنشاء الدول الجرمانية في الولايات الغربية، وتميل أكثر الدراسات الحديثة - بحق - إلى تحديد أثر هذه الأحداث فى التطور العام للثقافة، كما تفكر - أولا وقبل كل شيء - النظرية القائلة بأن قيام الدول الجرمانية كان نذيرا بحلول كارثة عامة، فعلى عكس ما حدث في القرون السابقة نلاحظ تدفقا مطرداً من الشعوب الجرمانية التي وجدت نفسها إزاء لغة وثقافة غريبتين، ونشأ عن ذلك أن نوع التعليم الذي كان سائداً في العصور القديمة أصبح أقل انتشارا بين العامة وبالتالي استطاعت الكنيسة ان تعزز مكانتها من حيث القوة الروحية السائدة في ذلك العصر.

وعلى خلاف ما حدث في الامبراطورية الغربية ظلت الإمبراطورية الشرقية محتفظة باستقلالها لفترة، ونتج عن ذلك بقاء تراثها لمدة أطول، على أن القرون التالية صحبها من الخسارات في قوة الدولة الخارجية ومن الانقلابات العنيفة الداخلية ما جعل الثقافة البيزنطية

---

(١) Si quem sancta tenet meditandi in lege voluntas. Hic potrit residens sacris intendere libris.

تميل إلى الأخذ بطابع القرون الوسطى.

بنى الإمبراطور قسطنطين مكتبة إلى جانب الأكاديمية التي شيدها في بيزنطة Byzantium، وكان شديد الاهتمام بالنصوص المسيحية، وقد عنى خلفاؤه بتوسيع المكتبة حتى أصبحت تحوي قبل الحريق الكبير عام ٤٧٦/٤٧٧م عدداً كبيراً جدا من الكتب، وقد عمرت حالا على أثر الحريق، على أن هذه الفترة أعقبتها حقبة تدهورت فيها الحياة العقلية ولم تنتعش إلا بعد الخلاف على تكسير التماثيل والإيقونات، وفي خلال هذه الفترة فقد كثير من الاثار الأدبية القديمة، وما بقي منها – وهو كثير أيضا – قام بجمعه العالم الكبير فوتيوسPHotius(المتوفي ٨٩٨/٨٩٧م) كما حلل في قائمته الببليوجرافيةMyrobiblion ٢٨٠ مؤلف اتحليلا نقديا وألحق بها تراجم مختصره لمؤلفيها، وجاء بعده عصر الإنسكلوبيديينencyclopedists البيزنطيين العظام، ولا نعلم ما إذا كانت المكتبة الإمبراطورية قد حطمت عن آخرها ولا كيف أعيد بناؤها فيما بعد ، ولكننا نستطيع أن نقول إنها ظلت قائمة منذ ذلك الحين وطول مدة الكارثة الصليبية اللاتينية إلى أن استولى الاتراك على القسطنطينية.

وكان يوجد إلى جانب المكتبة الإمبراطورية مكتبات كنسية مثل مكتبات البطريركيات ومكتبات الأديرة وهي أهمها جميعا، ففي خلال العصور المسيحية الأولى كان الزهاد والرهبان قد تمكنوا في الشرق من دراسة سلسلة المخطوطات ونسخها، وعملت الأديرة اتباعا لمبادئ ياخوميوسBachomius على اقتناء مجموعات الكتب الخاصة بها، وقد وضع الأب تيودور، رئيس الدير في ستوديومAbbot Theodore of Studium(المتوفى ٨٢٦م) والمصلح العظيم لحياة الرهبنة البيزنطية، الطراز الذي ساد العصور الوسطى وشملت القواعد التي وضعها غرفة الكتابة بالدير؛ المنسخ(Scriptorium) والمكتبة وواجبات الأمين، ونشأت في ديره في ستوديوم مدرسة نموذجية للخط، ويستطيع المرء أن يتبين حتى الآن أثر تيودور في أديرة جبل آثوسMt Athos وإن لم يعد بها الا بقية ضئيلة من ثروتها السابقة من المخطوطات.

ويجب علينا أن نتوقف لحظة لفحص حالة الثقافة البيزنطية لأننا سنشير إليها فى أكثر من موضوع فيما يلي. على أن اهتمامنا الرئيسي– مع ذلك – يتركز في الغرب لأننا نستطيع أن نتلمس حلقات الاتصال بين المكتبات التي وجدت هناك في بداية العصور الوسطى وبين المكتبات القائمة في الوقت الحاضر.

كانت البابوية تعتبر تنمية التراث المسيحي التقليدي في الغرب من أهم أهدافها وبذلك يمكن أن يعود تاريخ المكتبة البابوية إلى ما يقرب من ألفي عام، وإذا كان الغموض يكتنف نشأتها، فإن لدينا تقريرا يعود إلى أوائل القرن الثالث يدل على اهتمام أحد البابوات بحفظ أعمال

الشهداء، ومن ذلك الوقت الذي ظهرت فيه المكتبة إلى الوجود يبدو أنها كانت على صلة دائمة بالمحفوظات، وقد جمع دماسوس Damasus (المتوفى ٣٨٤م) بينهما في كنيسة سان لورنزوSan Lorenzo بروما، وفي القرن السابع على الأكثر تم نقلها إلى كنيسة البابا الأسقفيه المكرسة للقديس يوحنا بروما . وفي ذلك الوقت كان أكثر الانتفاع بالمكتبة يتصل بالمجامع المقدسةSynods الرومانية، وكانت مؤلفات آباء الكنيسة ومؤلفات الملاحدة تستعار منها . وفي القرن الثامن فإننا نواجه لأول مرة الوظيفة المهمة لأمين المكتبة Bibliothecarius التي شغلها في القرن التالي أناستاسيوسAnastasius الذي كانت ترجماته للمؤلفين اليونان موضع الثناء العاطر، وكانت روما إلى ذلك الحين سوق الكتب العظيمة التي يقتني منها الغرب مخطوطاته ونستطيع التسليم بأن الأساقفة الإيطاليين الآخرين – بعد عهد قسطنطين – على الأقل – كانت لديهم مكتبات كبيرة أو صغيرة، وكما كان الحال في الشرق ارتبطت هذه المكتبات آنذاك بمكتبات الأديرة، ومن المتعذر أن نعتبر القديس بندكتst - Benedict مؤسس المذهب البندكتي، أبا لمكتبات الأديرة الغربية وان كان قد ورد في تعاليمه «مخطوطات» المكتبة «Cadices de bibliathece وحث الإخوة على « أن يشغلوا أنفسهم بقراءة الكتب المقدسة» Occupori in lecrione divina [1].. وعلى أية حال لم يكن يدور بخلد الأب بندكت أن يجعل من الرهبان علماء، لذلك لم يكن في الدير الذي أقامه على جبل كاسينو مجموعة هامة من المخطوطات في البداية، ومثل هذه المجموعة تكونت في دير كاسينو في النصف الثاني من القرن الثامن حيث أصبح الدير مركزاً بعيد الأثر للدراسات العلمية وآوى بين جدرانه الشماسBoul the Dea Con الذي سنشير إليه في سياق آخر.

ويرجع الفضل في جعل الدير موئلا للثقافة الغربية إلى كاسيو دوروسCassiodorus، وكان نبيلا رومانيا وسياسياً في خدمة تيودرويك ملك الغوط العظيم، ثم اعتزل في دير فيفاريومVivarium الذي أسسه في جنوب إيطاليا في أواسط القرن السادس، وهناك أنشأ على نمط ما حدث في الشرق نوعاً من الأكاديمية المسيحية وألف لها كتابه Institutiones divinarium et saecularium litterarum الذي يعتبر بحق الأساس العلمي لنظام الدير وفيه دليل منهجي لدراسة كتاب الكنيسة والمؤلفين الكلاسيكيين أيضاً، وفي نفس الوقت يحيل إحالة مستمرة خاصة إلى مكتبة الدير، ويحث الإخوة على الاجتهاد في نسخ النصوص، وقد ورد في إحدى الفقرات قوله:«إن الشيطان يناله من الجراح بقدر ما ينسخ الراهب من كلمات اللّه »، وكان الأسقف

(١) See cardinal Gasquet`s translation = The rule of saint Benedict, London. 1925.

قيساريوسCaesarius of Arles قبل هذا الوقت بقليل أول من وجه راهبات الدير الذى أسسه إلى أن «يقمن بصنع نسخ جميلة من الكتب المقدسة » Libros divinos pulchre scriptitare ولكن كاسيودوروس كان حقيقة أول رجل في الغرب يحرص على جمع مجموعة منظمة من المؤلفات الأدبية الدينية والدنيوية، بل إن النصوص اليونانية كانت تستقدم من الشرق وتترجم في فيفاريوم. وكان كاسيودوروس يعنى بأن تكون المخطوطات ذات مظهر خارجي مقبول، ولكن أكبر همه كان يتركز في صحة النصوص، وهذه الجهود تصله بعلماء الإسكندرية قبله وبشرلمان ومستشاريه العلماء فيمن جاءوا من بعده، وأهم ما ندين به لكاسيودوروس نقل كثير من الآثار الأدبية من الحضارة القديمةإلى العصور الوسطى.

وينبغى أن نضع في صف كاسيودوروس القس الاسبانى ايزودور الأشبيلي Isidor of Seville (المتوفى ٦٣٦م)، ولعل الغوط الغربيين كانوا أسرع القبائل الجرمانية في التأثر بالرومان، وقد امتازت الكنيسة في شبه جزيرة أيبريا بحياة روحية ناهضة دامت إلى الفتح العربي، وكان من بين رجال الدين هناك كثيرون شغفوا بجمع الكتب، ويأتي إيزدور الإشبيلي في مقدمة هؤلاء جميعاً، فقد كان أعلم أهل زمانه ومثالاً يحتذى به في سعة الاطلاع، وقد جمع في موسوعته المسماةEtymoligiae نتاج المعرفة المعاصرة، فكان صاحب أول دائرة معارف مسيحية، وقد استمد مادتها من مكتبته الغنية، ونستطيع أن نحقق صورة واضحة منها بفضل الأسطر التي بقيت إلى الآن، وكان إذ ذاك تحلى الخزائن والجدران التي تعلق عليها أيضاً – جرياً على عادة القدماء – صور بارزة النقوش، ويبدو أن الباب كان عليه نقش يقول:«هناك كثير من المقدسات وكذلك كثير من الدنيويات»(١) . وتشير النقوش التي على الخزائن والجدران إلى الكتاب المقدس والآباء الشعراء المسيحيين، ومؤرخي الكنيسة والمشرعين القدماء وخصت قاعة النسخ ببيتين من الشعر.

وكان التقدم في بلاد الغال Gaul أقل حظا منه في أسبانيا برغم ما حدث في تلك المقاطعة الرومانية من بعث للبيان والشعر الكلاسيكيين في القرنين الرابع والخامس حين وجدت فيها بعض المكتبات ذات الشأن(مثل مكتبة الوالي تونانتيوس فيريولوس Tonantius Firreolus . ومارست حركة أدبية حية يدل عليها سرعة انتشار حياة سانت مارتينSt,Martin ، ولكن الثقافة

(١) Isidori Opera Ommia Rome, 1803, vii, 179. Quatedin j.W.= The care of books cambridge. 1909p.46.

على العموم – أخذت في الانحدار منذ قيام حكم الفرنج، ومضى وقت طويل قبل أن تحدث نهضة جديدة، وحتى هذه النهضة احتاجت إلى عون خارجي كان الإيرلنديون أول من قدمه.

ونشأت في جزيرة الزمرد Emerald isle التي بقيت بعيدة عن هجرات القبائل العاصفة، حياة رهبنة من نوع خاص اقترن فيها تقى الزهاد بالاهتمام الدائب بالفن والعلم، فكانت هذه الجزيرة الواقعة في أقصى الشمال الغربي تغني بمعرفة حقيقية للتراث اليوناني، وكانت الكتب تلقى عناية شديدة وتحلى بالكتابة والرسوم الدقيقة مما يدل على إحساس أصيل بالجمال. وكان لفظ «الكاتب» لقباً للشرف ويقترن غالباً برئاسة الدير، وكان الإيرلنديون تحركهم همة تبشيرية رائعة، وحيثما قادتهم حماستهم « للسعي في الأرض لخدمة المسيح » كانوا يجلبون مخطوطاتهم معهم.

وفي عام ٥٩٠م نزل بأرض الغال سانت كولومبان St Columban أهم المبشرين الأيرلنديين وأسس دير لوكسوىLuxeuil . وتلا ذلك تأسيس عدد من الأديرة منها دير كوربي Corbie، وسانت غالSt Gall ، وفي هذه المؤسسات جميعاً بعثت فنون الخط والكتاب من جديد، وقد أسس المبشر الإيرلندي دير بوبيوBobio في شمال إيطاليا، ويبدو أنه هو الذي وضع أساس المكتبة هناك، والتي لم تلبث أن أصبحت من أهم مكتبات إيطاليا، ولعل جزءاً كبيراً من ذخائر مخطوطات فيفاريوم قد نقل إلى بوبيو، وبذلك حفظ للأجيال التالية. وإذا علمنا أن أكثر ما نعرفه من الطروسpolimprests (الرقوق تمحى كتابتهاو تستخدم مرة أخرى) قد جاءت من بوبيو أدركنا مدى اهتمام كولومبان بتنمية مجموعتهم عن طريق النسخ ولا نعرف شيئاً أكثر من هذا بطريق مباشر عن الحقبة الأولى لتاريخ المكتبة. على أننا نجد في لائحة الدير عام ٨٣٥ م هذه العبارة « أمين المكتبة مسؤول عن جميع الكتب وعن المطالعة والنساخ »[1]. ويدل أقدم فهرس للمكتبة ويرجع إلى القرن العاشر أو الحادي عشر، على أن محتوياتها تبلغ ٦٥٠ مجلداً وتلك مجموعة مدهشة بالقياس لزمانها.

وقد دخلت انجلترا المسيحية على أيدي المبشرين الإيرلنديين والرومان في نفس الوقت، وسرعان ما استطاع الأنجلو ساكسون النابهون أن يتمثلوا ويتقنوا تمت هذا التأثير المزدوج ما جاء به أساتذتهم . وقد حمل رسل البابا الأوائل المخطوطات معهم، وبعد قليل ذهب الحجاج الأنجلوساكسون إلى روما وعادوا بذخائر أخرى معهم ، وقد عبر بندكت بسكوب-Benedict Bi

---

(١) bibliothecarius omnium libarum curam habeat, lectionum et scriptorum CF.C. cipolla codice diplomatico del

scop وئيس ديرى وير مـــوث Wearmouth وجـارو jarroW جبـال الألب خمس مرات حتى لقد استطاع وهو على فراش الموت أن يعهد إلى إخوانه الرهبان « بأنبل وأكبر مكتبة أتى بها من روما Bibliothe - can quom de Rome nabilissim am Copiossimanque . وفي هذه الحقبة عاش إلى عام ٧٣٥ القديس بيد edvexerat venerable Bede والذي فاق معاصريه جميعاً عالماً ومعلماً (٢) . وقد بنى عمله على عمل إيزودور وإن اختلف عنه اختلافاً واضحاً، فقد أراد إيزودور - وهو روماني المولد - أن ينقل الثقافة التي ورثها إلى مواطنيه الجدد الذين لا تربطه بهم رابطة الدم . أما بيد الانجلوسكسون فقد كانت تملؤه الرهبة التي تملأ الجرمان المحدثين من الثقافة القديمة المتفرقة ، وتدل طريقته في محاولة تمثلها على طابع من العصور الوسطى تماماً.

وقد شارك الانجلوساكسون الأيرلنديين في حماستهم التبشيرية واقتفوا أثر أساتذتهم إلى القارة، واختار سانت بونيفاسSt. Boniface ألمانيا التي لم تكن قد اعتنقت المسيحية بعد ميداناً لجهوده التبشيرية، وهكذا حمل معه عبر البحر مع الدين الجديد الثقافة التي نمت في انجلترا كما تبدو في الخط والرسوم الانجليزية على أقدم المخطوطات التي ترجع في أصلها إلى شرقي الراين Rhine وشمالي المين Maine، وكان بونيفاس يملك من البداية مجموعة من الكتب وقد أضاف اليها - كما تدل رسائله - ما كان يجلبه من بلاده، وقد احتفظ بهذه الكتب إلى أن استشهد ، وكان لدير فولدا Fulda الذي أنشأه بونيفاس واعتز به الألمان غرفة منتجة للمطالعة في عهد أول رؤسائه شتروم Strum (المتوفى ٧٧٩م).

وليس أدل على طابع هذا العصر الذي نصفه من تنقل المخطوطات وانتشارها من دير إلى دير أولا من الجنوب إلى الشمال ثم تعود ثانياً في الاتجاه العكسي. وفي نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع أحضر امبراطور الفرنج العظيم مجموعة من المخطوطات كانت إلى ذلك الحين مشتتة في أرجاء الغرب (١).

وقد اتجهت جهود شارلمان اتجاهاً واعياً إلى رفع مستويات الديانة والتعليم عن طريق الربط بينهما وبين التراث المسيحي في أواخر العصور القديمة، واستهدف قبل كل شيء أن يجعل من

---

(٢) monasterio di s. Columbano di Babbio 1.Roma 1918.p/140.

من أجل معلومات أكثر عن بيد وأنيرة ويرموث وجارو انظر كتاب:

Bede, His life, Times and Writings . Essays in commemoration of the twefith Centenary of his death , ed. by Alexander H. Thompson. Oxford 1935.

(١) Emil sesne = les livre, " Scriptoriae, etbibliothèques du commencement du viiie a la fin du siecle ecle. lille. 1938.

وهو دراسة قيمة جدا عن فرنسا أساساً، ولكنه يشتمل على معلومات عن بعض المكتبات التي تقع الآن داخل حدود ألمانيا وسويسرا.

رجال الكنيسة معلمين للشعب وأن يزودهم بقدر معين من المعرفة يحتفظون به طول حياتهم. ورغبة في تحقيق ذلك استقدم إلى بلاطه العلماء من البلاد المجاورة التي كان لها حظ أكبر من الثقافة في ذلك الحين. وهكذا قدم بول الشماس paul the Deacon من إيطاليا وجاء الكوين Alcuin من انجلترا يحمل معه عبر الخليج تعاليم بيد Bede[1]. وقد تولى الكوين إدارة مدرسة القصر التي أصبحت نموذجاً يحتذى في تنظيم المدارس في جميع الكنائس والأديرة، وبذلك تحققت الأهداف التي سعى إليها القادة من أمثال كاسيودوروس وبيد وبونيفاس، وأصبحت شائعة في امبراطورية الفرنج كلها ، وتعهدت الحكومة المركزية بإنشاء المناسخ في المؤسسات الدينية ، وطالبت بأن يكون العمل متقناً في شكله ومادته. وتم في القصر إصلاح للكتابة وسايرت تحلية الكتب المثل الجديدة للجمال، وتلا ذلك جمع منظم للكتب وغربلة للأعمال الكنسية والعلمية على أساس من النقد اللغوي السليم طبق فيه مبدأ «إن ماء المنبع أنقى من ماء الجدول ». وكانت المخطوطات الإيطالية تشمل أجود النصوص ، فأعدت نسخ موثقة منها وبذلت العناية الواجبة لتوزيعها وعلى هذا النحو حفظ العلماء في عصر شارلمان جانباً كبيراً من تراثنا.

وقد أتى غرس هذا الإمبراطور العظيم أجود ثمره في عهد حفيده شارل الأصلع Charles the Bald الذي يسمى بحق أول أمير مغرم بالكتب بين الأمراء في العصور الوسطى، وتعتبر المخطوطات التي أعدت تحت إشرافه من أبدع المخطوطات في ذلك العصر، وقد استدعى لمدرسة القصر الفيلسوف العظيم جون اسكوتس john Scotus وكلفه بترجمة الآثار الهامة من اليونانية، وفي ذلك الوقت أيضاً كان اللغوي العلامة لوبيوس فيريير Abbot Lupus of Ferriers يتعقب مخطوطات المؤلفين الكلاسيكيين ويتحقق من الأستاذية في فنه ما لم يتح إلا للعلماء المحدثين.

ونستطيع أن نخلص مما أوضحناه عن الاتجاهات والنتائج الخاصة بما يسمى النهضة الكارولنجية Carolingian Renaissamce بأن شؤون المكتبات لقيت عناية خاصة، وقد كان شارلمان يطلب من العلماء الأجانب أن يأتوا معهم بالمخطوطات من بلادهم ، ونحن مدينون لبول الشماس بكثير من آثار الكلاسيكيين ولالكوين « بإزهاء بريطانيا » كما تقول المصادر، وقد أنشأ الأخير مكتبة أبرشية في سانت مارتين بتور ST. Martin of Tours ، وكانت كلية على النمط الإنجليزي، وكانت مجموعة تور تعتبر مثالا تحتذيه المؤسسات الدينية الأخرى إذ أصبحت كل مؤسسة

---

(١) هناك دراسة صغيرة مفيدة عن الكوين وعمله هي: A.F.West"Alcuin and the rise of christian schools New York, 1892

جديدة تحس بضرورة إنشاء مكتبة إلى جانب المدرسة، وعلى أية حال كانت مكتبة القصر مركز حركة المخطوطات ، فكانت تودع فيها النصوص المعتمدة ويتاح الاطلاع عليها لكل من يهتم بذلك، وكان شارلمان حريصاً على أن يجعل مكتبته وشاملة قدر المستطاع، وبناء على ما سبق نستطيع أن نقول إن العبارة التالية الموجهة تامة إلى الإمبراطور تشير إلى المكتبة وهي :«من ذا الذى يقدر أن يعد مجموعات الكتب التي جمعت بتوجيهك من بلاد كثيرة!»(١)

وكان يوجد – عدا مكتبة القصر – مكتبة أخرى شخصية للإمبراطور، وكان لحفيدة شارل الأصلع مكتبة مثل هذه أيضاً، بل إن اينهارد Enhard وهو من العامة كان يملك مجموعة قيمة كان لوبوس يستعير منها المخطوطات التي يختارها من فهرس كان تحت تصرفه دائماً، على أن هذه البدايات الطيبة في تكوين المجموعات الخاصة لم تلبث أن اندثرت لأنها ، شأنها في ذلك شأن كثير مما أوجدته النهضة الكارولنجية، كانت تسبق عصرها فلم يتح لها أن تتطور ، وقد زال مازال من أعمال الإمبراطور ، ولكن بقي شيء على مر الزمن هو أن المكتبات ظلت منذ أيامه أداة لا غنى عنها من أدوات المؤسسات الدينية وخاصة الأديرة طوال عصر امبراطورية الفرنج.

(١) Quis saltm poteritserime enumerare librerum Quos tuo de multis Copulatsententis terris - Monementa Cermaniae Historice - poetae Latinimedii aevi,1,98.